هل الصوفية فِرْقة من الفِرَق؟

الصوفيَّة من أهل السُّنّة والجماعة.. ومنهم أئمة كِبار من السَّلف الصالح.. وليسوا فِرْقة ولا يستقلُّون بمذهب خاص بهم..

أجمل خَلْق الله هم الصوفية...؛ فالصوفية معناها الحفاظ على درجة الإحسان: «أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ، فإنْ لم تكُنْ تَراهُ فإنَّهُ يراك» [1].. هذه هي الصوفية.

فإذا وجدنا أدعياء تصوف -وهم لا يَزِنون شيئاً بميزان الحقيقة والشريعة- فما شأن الصوفية بذلك، فالأدعياء قد يوجدون في كل مجال زمانًا ومكانًا.

فأنتم تجدون أيضا أن شأن عموم المسلمين هو كذلك أيضاً، فنجد مَن هو مِن المسلمين مَن اسمه محمد محمود مصطفي أحمد وتجده فاسدًا مثلاً، فهل معناه أن الإسلام غير طيب!

لا تحكم على التصوف من خلال الصوفية: التصوف هو مراعاة درجة الإحسان.. كن مع ذلك، والشريعة واضحة، طريقنا مقيدٌ بالكتابِ والسُّنَّةِ، فما وافق الكتاب والسنة فذاك، وما خالف الكتاب والسنة فاضرب به عرض الحائط.

يقول الإمام مالك رحمه الله تعالى: «مَنْ تفقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسق، ومَنْ تصوَّف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن جمعَ بينهما فقد تحقَّق» [2].

فاحذر وأنت تحارب الفاسق أن تقوم بمحاربة الإسلام ذاته، وإذا كنا نحارب المنحرف فلنحذر من محاربة التصوف فلن نكون حكماء حينئذ: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ} [البقرة:269].

---

[1] رواه البخاري: الإيمان- سؤال جبريل: 50، عن أبي هُريرة رضى الله عنه.

[2] حاشية العلامة علي العدوي على شرح الإمام الزرقاني على متن العزية في الفقه المالكي ج3/ ص195. وشرح عين العلم وزين الحلم للإمام ملا علي القاري المتوفى 1014هـ. ج1/ صر 33.

رعاية الله لأوليائه

إن من سعة رحمة الله تعالى بخلقه عنايته بهم بعد استخلافهم في الأرض بموالاة إرسال الرسل إليهم بالهدى كلما نسوا وضلوا مع أخذهم بالحلم والإمهال لمسيئهم، وقد شملت رحمته عز وجل جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم، ولكنه سبحانه أولى أولياءه رعاية خاصة؛ وأحاطهم بعنايته وصانهم من كل سوء، يقول صلى الله عليه وسلم: «إن لله عز وجل عبادا يحييهم في عافية، ويميتهم في عافية، ويبعثهم في عافية، ويدخلهم الجنة في عافية» (المعجم الأوسط 3/ 266).

وممن أحاطهم الله سبحانه بعنايته وجعلهم في رعايته وخلدهم بذكره لهم في القرآن الكريم أصحاب الكهف؛ وهم فتية من صالح قومهم، ثبتوا على دين الحق لما شاع الكفر والشرك في قومهم وانتشر الباطل والبغي في ديارهم {إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى} [الكهف:13]، هم فتية تبين لهم الهدي في مجتمع ضل عن الله تعالى، ولا حياة لهم في هذا المجتمع إن هم أعلنوا عقيدتهم وجاهروا بها، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله، وأن يختاروا معيشة الكهف على زينة الحياة الدنيا.

هكذا يعرضهم القرآن الكريم كنموذج للإيمان في النفوس المؤمنة؛ كيف تطمئن به وتؤثره علي زينة الأرض ومتاعها: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا}

obeikandl.com

[الكهف:16]، وتحكي القصة كيف يحفظ الله هذه النفوس المؤمنة ويقيها الفتنة ويشملها بالرحمة؛ فالكهف ضيق خشن وبعيد عن العمران والناس، ولكن حمى الله أوسع وأرحم، ورعاية الله للمؤمنين أرحب وأعظم.

فها هم شباب مؤمنون أووا إلى الكهف؛ فضرب الله على آذانهم فناموا سنين طويلة، ثم يأذن الله ببعثهم بعد هذه السنين: {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ} [الكهف:19] وهم لا يدرون كم لبثوا، فكل ما يعلمونه أنهم أدركهم النوم فناموا ثم استيقظوا، ثم رأوا أنه لا طائل من هذا السؤال وليس من المهم معرفة الجواب، ففوضوا الأمر لله وانصرفوا إلى شأنهم وقالوا: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ} [الكهف:19].

وهكذا يدرك هؤلاء الفتية بعد استيقاظهم ونزولهم المدينة أنه في فترة نومهم قد تغيرت الأحوال وطويت الدهور وزالت دول وقامت أخري، وفي الوقت ذاته يعلم الناس الذين استيقظوا في عهدهم أن قدرة الله تعالى لا يحدها حد وأن رعايته لأوليائه لا نهاية لها وأن وعد الله حق: {وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا} [الكهف:21].

ولما ظهر أمرهم وبانت معجزتهم تنازع الناس في عددهم فجاء التوجيه: {قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا} [الكهف:22]، وإنما كان ذلك صيانة للطاقة العقلية أن تتبدد في غير ما يفيد، ولئلا يقفو المسلم ما ليس له به علم؛ إذ هذه أحداث طواها الزمن فهي من الغيب الموكول علمه إلى علام الغيوب.

ولم يقتصر نهيه سبحانه عن الحديث في أمر غيبي ماض لا يفيد؛ بل نهى كذلك عن الجدل في غيب المستقبل وما يقع فيه من الجزم بأن المقدمات التي يدبرها الإنسان ستؤدي إلى نتائجها المعتادة؛ فقال تعالى: {وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا} [الكهف:23-24]؛ فكل شيء مرهون بإرادة الله، وعقل الإنسان مهما علا قاصر عن إدراك ما قدره الله تعالى.

وليس معنى هذا ألا يدبر الإنسان في أمر المستقبل وألا يصل ماضي حياته بحاضره وقابله؛ بل معناه أن يلحظ الغيب والمشيئة التي تدبره، وأن يعزم ويستعين

بمشيئة الله على ما يعزم ويستشعر أن يد الله فوق يده؛ ولا يستبعد أن يكُون لله تدبير غير تدبيره؛ فإن وفقه الله إلى مراده فيها،وإن جرت مشيئة الله بغير ما دبر لم يحزن ولم ييأس؛ فالأمر لله أولا وآخرا.

إن قصة أصحاب الكهف قصة صراع بين الحق والباطل،وصورة مواجهة بين الإيمان والمادة، وقصة تهدينا إلي التعلق بالأسباب مع الاعتماد على الله وحده؛ وتعلمنا أيضا أن اللجوء إلى الله تعالى سمة المؤمن؛ فهو سبحانه عونه ونصيره {رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا} [الكهف:10]؛ فإن الفتية لما لجؤوا إليه داعين وأسلموا قيادهم له سبحانه واعتمدوا عليه آواهم الله وحفظهم في الكهف وأغدق عليهم مما طلبوا من الرحمة والهدى والرشاد: {فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا} [الكهف:16]، وكذلك كل من لجأ إلى ربه واعتمد عليه ثبته الله وحفظه وأيده بنصر من عنده.

دور التصوف في الحفاظ على الهوية الدينية في مصر

نشأ التصوف ليضع أتباعه في خضم الأحداث الاجتماعية والسياسية في المجتمع الإسلامي لا ليكونوا في معزل عن تلك الأحداث، بل عمل على إعدادهم ليكونوا في خدمة الدين والأمة والوطن.

فلم يقف التصوف ولا الصوفية عند حالة الذكر والزهد والتعبد الفردي أو الجماعي، بل أصبح للتصوف مؤسسات كبيرة لها امتداد في العالم أجمع، وصارت تقوم بدور تنموي وسياسي واجتماعي؛ فقد أفرزت الصوفية على مر العصور علماء ورجالا وقامات يزخر ويزدهر التاريخ الإسلامي بهم استنادا إلى شعبيتهم الجارفة، وحب جماهير المسلمين لهم، وما وصلوا إلى هذه المكانة وتلك المرتبة إلا بحسن التأسي والسلوك على المنهج القويم الثابت عن الكتاب والسنة واحترام علماء الأمة والسعي إلى وحدة المسلمين وابتغاء تماسكهم، ولذا لم يقتصروا على جهاد النفس فحسب كما

يردد من لا يعرفهم، ولكنهم جمعوا إلى ذلك القوة في محاربة الأعداء والطغاة، ومن نماذج هؤلاء الإمام الغزالي ومحيي الدين بن عربي والعز بن عبد السلام والإمام النووي، وفي العهد غير البعيد حمل الصوفية لواء الثورة الوطنية في مصر في مواجهة أمراء المماليك، حيث قاد الإمام الدردير الصوفي الكبير ثورة كبيرة ضد المماليك قبل الثورة الفرنسية بثلاث سنوات، أجبرت المماليك على الاعتراف بأن الأمة مصدر السلطات، ومنعتهم من فرض ضرائب جديدة إلا برأي الشعب، مع الإقرار الكامل بحرية الأمة وكرامتها.

وللتصوف أصول وضوابط كبرى هي: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق، فالتصوف إنما يكون بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ) [السجدة:24]، وقد نص الصوفية على أنه: لا يصلح للتصدر في طريق الصوفية إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب حتى عرف مجازاتها واستعاراتها وغير ذلك، وهو ما حكاه العارف بالله عبد الوهاب الشعراني في مقدمة كتابه الطبقات الكبرى (الطبقات ص5)، وقال كذلك: إن طريق القوم محررة على الكتاب والسنة كتحرير الذهب والجوهر، فيحتاج سالكها إلى ميزان شرعي في كل حركة وسكون (لطائف المنن والأخلاق 1/ 2).

وقد نشأت الصوفية في مصر على أساس من الوسطية والاعتدال، وقد صاحبها إنشاء أول خانقاه في مصر في عصر الناصر صلاح الدين الأيوبي، وانتشرت من بعدها الخانقاوات والمدارس الصوفية في ربوع مصر فعملت على إعداد المريدين والطلاب إعدادا نفسيا وتربويا وأخلاقيا لمواجهة المخاطر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كانت تعصف بالمجتمع المسلم بين فترة وأخرى.

وتمسكا بالمبدأ الوسطي الذي قام عليه الإسلام، كانت الصوفية في مصر بعيدة عن الغلو، وتتميز بالاعتدال وتنأى عن الشطط، فقد كانت الطرق الصوفية المصرية يجمعها طابع خاص هو العناية بالجانب العلمي والخلقي.

ومع ما كان للتصوف في مصر من حياة روحية خاصة، فقد كان له تأثيره الخاص على العديد من مظاهر الحياة المحيطة به، وكان ذلك داعيا إلى الاعتماد عليه في

الدعوة إلى الله ورسوله، وهو ما ساعد الصوفية بقوة في تشكيل الهوية الدينية الوسطية في مصر، وكان سبيلها في ذلك بساطة العرض الذي تقوم به وسهولة الانضواء تحت لوائها في ظل الخطوب التي تعرضت لها مصر خلال الفترات المختلفة، حيث كانت التكايا والزوايا والخانقاوات ملاذا آمنا للمظلومين والفقراء والضعفاء، وغدت تلك المراكز نبراسا دينيا حضاريا يتخرج فيه المسلم العامل بكتاب الله وسنة رسوله ليجاهد في سبيل وطنه ودينه، ومن ثم شكلت الصوفية جل الحالة الدينية في مصر التي اتسمت بالبعد عن الغلو والتشدد.

وقد ارتبط التصوف بحب آل البيت وإقامة الموالد وحلقات الذكر، مما ساعد على جذب المريدين إلى محبة المساجد وآل البيت، وهو الأمر الذي أسهم في بلورة الإسلام الوسطي وتشكيل الهوية الدينية، وهذه المحبة لا يشترك فيها الصوفية والشيعة فقط، بل إن المسلمين جميعا سنة وشيعة يشتركون في محبتهم لآل البيت رضي الله عنهم.

لقد كانت الصوفية -وما زالت- عاملا فاعلا وأصيلا في المجتمع الإسلامي في مصر، وهو ما يدعو الطرق الصوفية في كل زمان إلى الالتفاف حول أصول التصوف والتمسك بها، والعودة إلى دورها الرائد في الدعوة إلى الله وقيادة المجتمع دينيا واجتماعيا وسياسيا، كما كانت طوال تاريخها في مصر، ولا يضيرها ظهور بعض الفئات من المتواكلين والجهلة الذين يتكسبون من وراء ادعائهم الصوفية والانتساب إليها، فطريق التصوف جلي قوي لا يحيد عن صراط الله المستقيم رغم تهجم المتهجمين واتهام المغرضين.

***